الباب السابع

الميول الفطرية العامة — أثرها فى حياة الانسان — ضرورة مراعاتها فى التربية .

الميول الفطرية العامة

نشاهد علاوة على تلك الأفعال الغريزية التى يستطيع المرء القيام بها دون أن يتعلمها من أحد إذا ما اضطرته الظروف والمناسبات لذلك ، أنواعا أخرى من السلوك الفطرى تشابه كثيرا السلوك الغريزى ، حتى أن كثيراً من الناس لا يميِّز بينهما ، ولا يرى فارقا فيهما . ومثل هذا السلوك الفطرى : التقليد واللعب

فالطفل الصغير قادر على أن يقلد غيره فى حركاته وأفعاله : فهو يبتسم إذا ما ابتسمت أمه له ، ويطوح بيديه إذا فعل أحد أمامه ذلك ، ويتكلم باللهجة التى يتكلم بها من حوله ، ويمشى مشية أبيه ، ويتصفح الجريدة قبل أن يعرف القراءة والكتابة ، لأنه يرى أباه يتصفحها ، وهكذا .

ونستدل من هذا على أن الطفل مجبول بقوة فطرية تجعله قادراً على أن يقلد غيره فى الحركات والأفعال .

على أن تقليد الطفل لا يقف عند القيام بالحركات والأفعال التى يشاهد غيره يقوم بها ، بل إننا نشاهد فيه قدرة على تقليد الغير فى وجداناتهم ومشاعرهم وعواطفهم ، فهو يفرح إذا رأى شخصا فرحا . ويغضب إذا وقع بصره على وجه غاضب ، ويشمئز إذا ظهرت علائم الاشمئزاز على أحد فى رفقته .

وهو أيضا قادر بالفطرة على أن يقلد الغير فى آرائهم وأفكارهم وعقائدهم ، فإن قال أبوه إن هذا المنظر جميل ، صدقه وآمن به ، دون أن يطلب دليلا أو يتزود ببرهان . وإن أوحيت اليه أن رجلا من الرجال كريم عظيم ، قد يصدقك فيما تقول ، دون أن يبنى تصديقه لكلامك على أى أساس .

ونستخلص من هذا أن فى الإنسان قوة فطرية تجعله مستعداً لأن يتقبل آراء الغير وأفكارهم وعقائدهم ، وهو مقتنع واثق ، دون أن يقدّم له دليل أو برهان للتصديق على صحة تلك الآراء والأفكار والعقائد . وتسمى هذه القوة الفطرية « بالاستهواء » .

وأن فيه قوة أخرى تجعله مستعدا لأن يشارك الغير فى وجدانهم ، فيفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم ، ويحب لحبهم ، ويخاف لخوفهم . وتسمى هذه القوة الفطرية « بالمشاركة الوجدانية » .

وكذلك يخلقه الله تعالى وفيه قوة فطريه أخرى تجعله يقوم بالحركات والأفعال التى يقوم بها الغير وتسمى هذه القوه « تقليدا »

والسبب الذى من أجله لم تعتبر هذه القوى أو الميول الفطرية غرائز ، ينحصر فى أنه ليس لأىّ منها وجدان خاص أو انفعال كما سبق أن ذكرنا . فالاستهواء قد يرتبط بالفرح أو الحزن أو الخوف أو الغضب تبعا للفكرة أو الرأى الذى يوحى الغير به إلى الإنسان . فقد تكون الفكرة سارة فيفرح ، أو محزنة فيحزن ، أو مخيفة فيخاف ، أو مثيرة للغضب فيغضب .

أما فى المشاركة الوجدانية ، فهذا الفرق واضح بينها وبين الغريزة . فبينما أن إثارة غريزة الهرب دائما يصحبها خوف ، فإن المشاركة الوجدانية قد تكون على شكل خوف أو حب أو إعجاب أو زهو أو غير ذلك . فإن شاهدت شخصا عليه علائم الخوف خفت ، أو آخر تبدو عليه أمارات العطف عطفت ، وهكذا .

وكذلك الأمر فى التقليد . فقد أقلد حركة من الحركات وأنا مسرور جذل ، وقد أقلد أخرى وانا خائف وجل .

ولذلك سميت هذه القوى الفطرية بالميول الفطرية العامة ، تمييزا لها عن

الغرائز التى تسمى بالميول الفطرية الخاصة ، وذلك لأن لكل غريزة وجدانا خاصا بها ، يظهر إذا ما أثيرت فى أى الظروف والمناسبات .

والمشاركة الوجدانية والتقليد ، ليسا قاصرين على الإنسان بل إنهما موجودان فى الحيوان الاجتماعى ، أى الذى ينتقل مع غيره فى قطيع ، كالخيل والبقر والغنم وغيرها .

والميول الثلاثة ، لها أكبر الأثر فى نشأة الطفل الصغير . فهو عن طريقها يقلد أباه وأمه ومن يحتك به ، فى اراتهم ووجداناتهم ومشاعرهم وأفعالهم . فإن كانت طيبة ساعد ذلك على تنشئته فردا صالحا ، وإن كانت فاسدة أضر ذلك بتكوينه ، وخرج للحياة بنزعة للشر والفساد . ولذلك كان من الواجب أن نكون قدوة صالحة لأطفالنا الصغار ، نقوم أمامهم بالأفعال الطيبه حتى يأخذوها عنا ، فتصبح عادات فيهم ، فالمثابرة والنظافة والنظام واللغة الصحيحة والألفاظ الطيبة وغير ذلك ، يمكن أن نكونها فى الطفل عن طريق التقليد .

والعطف على البائسين وحب الأسرة والوطنية والتحلى بالصدق والأمانة ، يمكننا أن نبثها فيهم عن طريق المشاركة الوجدانية .

والعقيدة الدينية والآراء الصالحة والتقاليد الطيبة ، يمكننا أن نغرسها فيهم عن طريق الاستهواء .

وهذه الميول الثلاثة قوية فى الطفل الصغير ، وذلك لقلة خبراته وعجزه فى الحياة . وتضعف كلما اشتد ساعده ، واعتمد على نفسه ، ونضج فكره وقويت فيه النزعة للاستقلال والعمل .

وتتداخل هذه الميول بعضها فى بعض ، وهى تعمل معاً كأنها وحدة .

فقد يُبَثُّ فى الفرد رأى خاص عن شخص فيجله ويحترمه ، ويعمل على أن يأخذ عنه ما احترمه من أجله .

وبذلك يعمل الاستهواء والمشاركة الوجدانية والتقليد عملها كأنها قوة واحدة ، لا تنفصم عراها ولا تتفكك رابطتها .

الاستهواء

كل منا لديه آراء كثيرة ، ومعلومات شتى ، وتقاليد معينة ، فى مختلف مرافق الحياة ، يتمسك بها فى جميع أحواله ، ويعززها وينشرها بين الناس . وإذا حققنا النظر ، وجدنا أننا قد أخذناها عن غيرنا من غير قصد أو تفكير . ذلك لأن كلاً منا فى هذه الحياة متأثر بطبعته بآراء غيره تأثرا يختلف باختلاف استعداده وظروفه وأحواله والبيئة المحيطة به ، وخاضع فى كل ذلك للميل الفطرى الذى يجعل الإنسان متأثر بأفكار غيره واعتقاداته فيقبلها دون معارضة أو تمحيص . وهذا ما يعرف بالاستهواء . ولولاه لنشأ كل فرد مستقلا برأى خاص ، ولنتج عن ذلك اضطراب المجتمع واختلال كيانه واندثار تقاليده بل وحضارته . ولكن الواقع أن الأفراد تؤثر فى الجماعات ، والجماعات فى الأفراد ، كما أن الفرد يؤثر فى الفرد وفى نفسه أيضا ، وبهذا تحتفظ الأمة بتقاليدها ، والشعب بمعتقداته ، ويشب الصغار على شاكلة الكبار ؛ فابن المتدين يشب متدينا فى الغالب ، وابن الوطنى يشب وطنيا ، والشرقى يأخذ بعرف قومه ، والغربى يسير فى معيشته على نمط الغرب وهكذا .

وطور الطفولة مرآة جلية نرى فيها أثر الاستهواء فى الحياة . فإذا أوحيت لطفل كثير الحركة بأنه سيكون هادئا ، وسيستمع بسكون إلى القصة التى ستلقيها عليه ، فقد يجدى معه هذا الإيحاء ويركن إلى الاستقرار والسكون . وبتشجيع الطفل على الرفق بإخوته الصغار واستهوائه إلى العطف عليهم ، يسهل

علينا أن نقوى فيه عاطفة المحبة نحوهم . وإذا كان لدينا طفل خجول ، فإننا نساعده فى التغلب على خجله بالإيحاء اليه القدرة على أداء مانعهد إليه من مختلف الأعمال .

وإذا أشرنا للأطفال كم يكون جميلا منهم أن يساعدوا فى تنسيق الحجرة ، فإنهم يفعلون ذلك فى حماس .

وهكذا نستطيع أن نستهوى الأطفال ، ونؤثر فيهم أشد التأثير ، فيندفعون للعمل برغبة قوية من محض إرادتهم ، وقوة صادقة من عزيمتهم . ولا صعوبة فى ذلك بعد أن أصبحت التلميحات الموحاة حقائق ماثلة فى أذهان الأطفال عن طريق قابليتهم للاستهواء ، وسرعان ما يحققونها . غير أن الأطفال قد يتأثرون بعكس ما نوحيه اليهم فى بعض الأحيان : فيقومون بضد مانريد . وهذا ينشأ فى معظم الأحوال عن كراهية الطفل للموحى ، أو رغبته فى إظهار شخصيته . ولذلك كان نجاح الاستهواء متوقفا على قدرة المربى ومهارته وحكمته وتصرفه تصرفا حسنا مناسبا للظرف الذى هو فيه مع الأطفال .

والاستهواء ولاشك أكبر نفعا من أساليب الأمر المختلفة التى طالما تدعو الأطفال للتمرد والعناد . ويختلف استعداد الأطفال للتأثر بالاستهواء باختلاف أعمارهم وظروفهم وأحوالهم ويتبين ذلك فيما يلى : —

١ — الاستهواء قوى فى السنين الاولى ، ولعل ذلك يرجع لقلة خبرة الأطفال بالحياة ، وخلو أذهانهم من ضروبها وتفاصيلها ، ونقص إدراكهم مما يجعلهم غير قادرين على النقد والحكم .

٢ — تزداد قابلية الاستهواء عند الأطفال إذا وجدوا فى جماعات كأن يكونوا مع إخوتهم فى البيت أو أقرانهم فى المدرسة . وهذا أحد الاسباب التى من أجلها يرى بعض المربين ضرورة جعل المدرسة مركزا لحياة الطفل الاجتماعية .

٣ — تقل هذه القابلية تدريجيا كلما تقدم الأطفال فى السن . وهذا طبيعى لأن تقدمهم فى السن يصحبه نمو فى العقل ، وزيادة فى الخبرة وقدرة على النقد والتمييز .

وتزيد القابلية للاستهواء تبعا لعوامل أخرى أهمها ما يأتى :

١ — التسرع فى القول أو الفعل .

٢ — ضعف الشخصية وعدم الثقة بالنفس .

٣ — شدة المزاج العصبى .

٤ — الجهل بموضوع الاستهواء أو اضطراب معلومات الفرد عنه .

٥ — صعوبة تحكيم العقل وإعمال الروية لسبب من الأسباب العارضة ، كالتعب والمرض والتنويم المغناطيسى وغير ذلك .

والنساء بوجه عام ، أشد قابلية للاستهواء من الرجال وذلك لرقة عواطفهن وسرعة تأثرهن . كما أن الإنسان بوجه عام يكون فى وسط الجماعة أميل إلى مايوحى اليه به منه إذا كان منفردا .

وليس كل إنسان قادرا على استهواء غيره ، ولا يكون ذلك وليد الصدف ، بل إن هناك صفات يجب توافرها فى الموحى ليتسنى له ذلك وهذه الصفات هى :

١ — أن يكون الشخص ذا مكانة عالية وشخصية بارزة محترمة ؛ فالاستهواء يكون أقوى إذا صدر من رئيس إلى مرءوس أو من مرب إلى أطفاله .

٢ — أن يلقى الموحى كلامه وحديثه وعباراته بلهجة الواثق المطمئن المتمكن من نفسه ، دون أن يدع مجالا للشك أو التردد فى قبول فكرته .

٣ — أن يكرر الموحى إيحاءه ، لأن التكرار فيه معنى التأكيد فتكرار

الموحى لفكرة أو رأى أو عقيدة مثلا يوحى بأهميتها ، وإذ ذاك يتسرب هذا الاهتمام إلى الموحَى اليه ، فتتمكن الفكرة أو الرأى أو العقيدة ، وترسخ فى ذهنه ، فينزع للعمل بها .

٤ — أن يلقى ايحاءه بصيغة إيجابية لأن استعمال النفى والنهى قد يثير الفكرة المعـــارضة التى يريد الموحى أن تحيد عنها الجماعة أو الفرد . وبذلك يتجنب ما يسمى بالاستهواء العكسى .

٥ — أن يستعين بأقوال العظماء المعترف لهم بالمكانة ، لأن هذا يكسب كلامه قوة على التأثير والإقناع .

٦ — أن يكون فطنا فى تفهم عقلية من يوحى اليهم بآرائه ، حتى يصوغها فى الشكل الذى يوافق تلك العقلية فيقبلوها باقتناع .

ولمّا كانت حياة الطفل ومستقبله يتوقفان على الطريقة التى يسلكها المربى فى تربيته ، ولمّا كانت أخلاقه مبنية على كيفية معاملته له ، يجب قبل كل شىء أن يعمل على أن تكون شخصيته جذابة لأطفاله ، وأن يكون موضع ثقتهم ، فيعطف عليهم ويحبهم ، وينزل إلى مستوى عقليتهم فى كل فرصة . كما يجب أن يكون واثقا مما يلقيه على الطفل وأن يحسن اختياره ليكون متفقا مع ميوله ومناسبا لعقله ومداركه ، كما يجب أيضا أن يوحى آراءه وأفكاره بطريقة حسنة ، وبعبارة مناسبة مشوقة مثيرة للرغبة ، مراعيا تكرارها فى المواقف المناسبة . فإن فعل ذلك سهل عليه استهواؤه للأطفال ، وتكللت مهمته فى ذلك بنجاح .

الاستهواء والتربية :

قد بيّنا فيما تقدم أن الفرد يؤثر فى الجماعات ، وأن الجماعات تؤثر فى الفرد ، وأن الفرد يؤثر فى سواه وفى نفسه ؛ وعلى هذا الأساس يمكننا أن نُميّز نوعين للاستهواء .

١ — أحدهما خارجى : وهذا يشمل تأثير الفرد فى غيره سواء أكان

فردا أم جماعة . ولهذا النوع شأنه الخطير فى تكوين الأفراد ؛ فروح المربى وما تنطوى عليه من خير أو شر ، وروح الأسرة وما يسودها من الشقاء أو الهناء ، وكذا روح المجتمع وما يشمل من مختلف الأنظمة والتقاليد ، كل هذا من عوامل الاستهواء الخارجى الذى له أثره فى استهواء الأفراد والجماعات .

٢ — والآخر داخلى أو ذاتى : وهو تأثير الشخص فى نفسه ، مما يدعوه إلى التفاؤل تارة والتشاؤم أخرى ، وليس منا من يجهل خطر التشاؤم على حياة بعض الناس الذين يؤثر فيهم الوهم لدرجة بعيدة لا يستطيعون معها مزاولة العمل أو الإقدام عليه ، وبذلك يذهبون ضحية وهمهم الذى يُبدِّل حياتهم تبديلا . وإنا لنشاهد كثيرا من الناس يوحون إلى أنفسهم بالمرض بينما لا يكون باجسامهم علة فيمرضون حقا ، وتنقلب حياتهم بؤسا . ومنهم من يستهوون أنفسهم فى حالات المرض بأنهم آخذون فى سبيل الشفاء ، فيتحسن حالهم بالتدريج والعاقل من يوحى إلى نفسه بالخير ، ويعللها بالآمال والقدرة على التغلب على الأمراض والمصاعب ، فإن مثل هذا الايحاء الذاتى يعطى الانسان قوة على مقاومة متاعبه ، ويغرس فيه الثقة بالنفس ويجعله يقدم على أعماله بشجاعة واثقا من نجاحه فيها . قال الإمام على : « تفاءل بالخير تنله » .

وسواء أكان الاستهواء داخليا أم خارجيا ، فأساسه والأصل فيه واحد ، إذ لا يخرج عن فكرة يلقيها الشخص فى نفسه أو نفس غيره ، فيقبلها دون معارضة ، وتصبح لديه بطريقة لاشعورية عقيدة ثابتة ، تدفعه إلى العمل . وأثر ذلك يتجلى واضحا فى الأطفال . فإننا لا نكاد نوحى إلى الطفل بفكرة من الأفكار ، إلا ونراه قد تعلق بها وعمل على تنفيذها .

وتختلف قوة أثر الفكرة الموحى بها على حسب ما يتصل بها من الانفعالات والوجدانات النفسية . فاذا خطر بذهن المرء فكرة وكان متحمسا

لها ومؤمنا بها ، أو كانت مصحوبة بسرور أو خوف ، فإنها لا تلبث أن تملك عليه قياده ، وتتغلب على ما يعارضها من الآراء . وسرعان ما ينتقل أثرها إلى حيز الفعل والعمل .

وليس الاستهواء مقصورا على عالم النظريات الفكرية ، بل إن له أكبر الأثر فى نواحى الحياة العملية . فالطبيب قد يوحى إلى المريض فيشفى أو يزيد مرضه ؛ والقائد يستهوى جنوده فيستميتون فى القتال ؛ والزعيم يخطب شعبه فيثور أو يهدأ حسبما يريد ؛ والمربى يؤثر فى أطفاله فينجحون فى الحياة أو تضيع آمالهم فيها .

فليس من زخرف القول إذن أن نقول إن على الاستهواء يتوقف نجاح الفرد ، بل المجتمع ، بل العالم بأسره . ففى كل بيئة مهما كانت درجتها من الرقى أو الانحطاط أناس يؤثرون فيمن حولهم فيوجهونهم وجهات خاصة ، وهؤلاء يؤثرون فى غيرهم ، وهكذا نرى كل جماعة تصطبغ بصبغة واحدة ، ويسودها روح واحد هو روح رؤسائها أو أبرز الناس شخصية فيها .

من هذا يتبين لنا أثر الاستهواء فى الحياة . وقد سبق القول إن الأطفال هم أشد الناس قابلية له . ولما كانوا هم رجال المستقبل ونساؤه ، وكان الاستهواء دافعا إلى العمل ، وكان العمل مظهرا لشخصية المرء ، لذلك كان واجبا مقدسا على كل من يعهد اليه أمر تربية الطفل ، أن يعنى عناية خاصـــة بالأمور الآتية : —

١ — اختيار البيئة : لاشك أن للبيئة أثرا كبيرا فى نشأة الطفل فمن يختلط بهم من الناس ، وما يسمعه من كلمات ، وما يقرؤه من كتب ومجلات وجرائد وروايات ، وما يراه من مناظر ، كل ذلك يستهويه فيجعله يحب الخير أو الشر على حسب مايحيط به من الظروف . لذلك فالعناية واجبة بتعرف

أحوال البيئة التى تحيط بالطفل ، واختيار أصدقائه ، ومراقبة من يتصلون به فى المنزل من خدم وغيرهم ، وحسن اختيار مايقع تحت حسه من كتب ومجلات ونحوها ، والاهتمام بإحاطته ببيئة نظيفة مرتبـــة منظمه . وإن أقل توانٍ فى مراقبة بيئته المنزلية أو المدرسية ليهدم أساس تربيته .

٣ — القدوة الصالحة : قد سبق أن قلنا إن الروح الذى يسود المنزل والمدرسة سواء أكان حسنا أم سيئا يتوقف على نوع الإيحاء الذى يوحيه الكبار إلى الصغار ، لأن المربى هو القدوة التى يقتدى بها الطفل ، والصورة التى يتمثل بها ويحاكيها فى حركاتها وسكناتها وأعمالها وأقوالهـــا . وإن تأثير شخصيته فيه لعظيم جدا ؛ فكل مايوحيه اليه بكلامه وأعماله يصير أمامه حقيقة ماثلة سرعان ماينزع إلى التمسك بها والعمل بمقتضاها . وإن اهتمام المربى بأمر من الأمور ليسرى إلى الطفل فيهتم به بدوره . وبهذه الطريقة نستطيع أن نغرس فى نفسه الفضائل والصفات الحسنة ، بإثارة العواطف السامية . فإذا أوحينا اليه أن لون الشفق جميل ، وأن منظر القمر تحت السحاب خلاب ، أو أن هذه المزروعات والأزهار جميلة التكوين والتنسيق يتّجه نظره وانتباهه اليها من حين لآخر ، وبذلك نحبب إليه جمال الطبيعة ونكوّن فيه العاطفة الجمالية . وبمثل هذه الطريقة نغرس فيه عاطفة حب الوطن والتدين وحب العلم والعاطفة الخلقية وغيرها من العواطف التى لهـا أشد الأثر فى حياته المستقبله .

وهكذا إذا كان الكبار قدوة صالحة للصغار ، وكانوا فوق ذلك محبوبين عندهم ، فلا شك أن الصـــغار يتأثرون بهم ، ويحبون ما يحبون ، ويكرهون مايكرهون ؛ وفى ذلك قال أحد الحكماء يخاطب معلم ولده « ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك ، فإن عيوبه معقودة بعيبك ، فالحسن عنده ماصنعت والقبيح لديه ما تركت » .

٣ — التشجيع والتشويق : إن المربى القدير ليوحى إلى طفله كل خير ، ويشجعه على ما يقوم به من طيب الأعمال ، ويبعث فيه الحيوية والنشاط ، ويحمله على الجد والمثابرة ، ويحبب إليه العلم ، ويشوقه بشتى الطرق إلى الإقبال عليه ، ويسهل لديه الصعب من الأمور فيصير سهلا ، ويذلل أمامه العقبات فيقتحمها بصبر وجلد .

ومع ما للاستهواء من قيمة فى تشجيع الأطفال ، وغرس الفضائل فيهم ، وتحبيب العمل لديهم ، وتذليل العقبات أمامهم ، وتحسين الصلة بينهم وبين القائمين بأمرهم ، فإنه فى الحقيقة سلاح ذو حدين يجب الاحتراس من أضراره التى تنشأ من التمادى فى أن نجعل الأطفال يقبلون كل شىء نلقيه عليهم بدون نقاش ولا معارضة ، لأن ذلك ينشئهم ضعافا فى شخصيتهم . بل يجب أن ندع لهم فرصة للمناقشة والبحث والتمحيص ، ونستهويهم لذلك كأن نقول لهم « أنا أعتقد أنه يجب عليكم أن تعملوا كيت وكيت ، أو أن تقرؤا فى كتاب كذا ، أو تسألوا سؤالا عن كذا حتى تتأكدو مما أقول » . وبذلك يكون قد استعمل المربى الاستهواء استعمالا طيبا معقولا .

الاجتماع والمشاركة الوجدانية

ليس فى وسع صغير أو كبير أن يعيش منفردا فى الحياة ، لأن الإنسان بفطرته ميال إلى الاجتماع . والمرء كما يقولون مدنى بطبعه . فالطفل يميل من صغره لأن يجتمع مع غيره ، وكذلك الكبير . وهذا الميل هو فى الحقيقة أساس تكوين الجماعات والطبقات التى تتضامن وتتعاون فى إدارة شئون الحياة وتنظيم المجتمع . وكلما كان هذا التضامن وثيقا متينا بين أفراد الجماعة ارتقى المجتمع ، وعلا الشعب ، كما أنه على أساس الميل إلى الاجتماع ، تتصل الشعوب المختلفة وتتضامن وتتعاون وتشترك فى الشئون الفنية والعلمية والمادية وغيرها .

وليس هذا الميل مقصورا على النوع الإنسانى ، بل هو عام فى مملكة الكائنات الحية . فهذه نزعة المعاشرة الشائعة بين الحيوانات الأولية وبعض الحيوانات الراقية ، تدلنا على وجود هذا الميل فيها . ونحن نرى معظم الطيور والحيوانات تعيش جماعات ، ويعاون بعضها البعض فى تأدية شئون الحياة .

وقصارى القول إن هناك ميلا فطريا يدفع الإنسان والحيوان إلى التجمع . وهذا الميل هو السبب فى شعور المرء بضيق فى عزلته ، وبوحشة عند ابتعاده عن الجماعة التى ينتسب إليها . وعلى العكس ، يشعر المرء بارتياح وسرور عند ما يكون بين عشيرته وأهله ، وعند ما يجتمع بأقاربه وأصدقائه المحبوبين عنده .

وهذه الظاهرة واضحة أيضا فى الأطفال . فالطفل سرعان ما يسره الاجتماع بغيره ، ويطيب له اللعب مع من يماثلونه سنا وعقلا . وإن لذلك أثرا كبيرا فى حياته العقلية والخلقية .

ولذلك اهتمت التربية الحديثة بالحياة الاجتماعية ، فهاهى طرق «ديوى» و « دكرولى » وغيرهما كلها تهتم بهذه الناحية ، فجعلت كثيرا من نواحى الدراسة مشتركة بين جماعات من الأطفال .

والمرء فى الجماعة أشد تأثرا منه فى العزلة والانفراد . وعلى ذلك نجد الإنسان يتاثر بآراء الجماعة المحيطة به أكثر من تأثره بآراء شخص واحد ، ولو كانت الأولى خاطئة والثانية صائبة .

غير أن الميل إلى الاجتماع يستدعى مشاركة الغير فى وجدانه وانفعالاته المختلفة حتى يمكنه العيش معه . وإن قدرة الإنسان على ذلك ، استعداد فطرى فيه يدفعه إلى التأثر بما يراه فى غيره ، ويجعله يقلده فى عواطفه وانفعالاته . فهو وإن كان يتضمن نوعا من نزعة التقليـــد ، وضربا من ضروب الاستهواء المرتبطة بالوجدان ، إلا أن المقصود به نوع آخر من الميول الفطرية ، يتعلق بالشعور الوجدانى ، ويعرف بالمشاركة الوجدانية .

وهى كما عرفها أحد الكتاب الاجتماعيين « الحلقة الفضية أو الرابطة الحريرية التى تصل القلب بالقلب ، والعقل بالعقل . والجسم بالروح » . أى هى القوة التى بها نتصل بقلوب غيرنا وأرواحهم ، فنستطيع أن نعيش معهم ونرتبط بهم .

أثرها فى الفرد والمجتمع :

تعتبر المشاركة الوجدانية من أهم العوامل التى تجعل للمرء شخصية بارزة ، وتساعده على أن يكون محبوبا عند الجميع ، فيطيعونه برغبة صادقة . فقوة التأثير فى الناس لا تستدعى قسوة أو غلظة كما يزعم البعض ، ولكنها تستدعى مشاركتهم فى شعورهم ووجدانهم ، والتألم لما يدهمهم من حوادث الدهر ، ومواساتهم فيما يلم بهم من نوائبه ، والنظر إلى حسناتهم قبل سيئاتهم ، وفى

صوابهم قبل خطئهم . ونحن نرى هذه النزعة للمشاركة الوجدانية جلية فى الأطفال .

أثرها فى التربية والتعليم :

المشاركة الوجدانية من الميول التى بها يستطيع المربى تكييف أخلاق أطفاله ، وصبغها بالصبغة التى يريدها . والمربى القدير الماهر هو الذى يستخدم شخصيته البارزة ، وأخلاقه الحسنة ، ونفسيته الطيبة ، وعواطفه السامية فى التأثير على أطفاله ، فيصبحون مثله فى وداعته ، وسماحته ، ولين أخلاقه وطيب معاملته ، ورغبته فى العلم .

وبديهى أن المربى الذى يهتم لكدر أحد أطفاله ويبحث ويسأل عما يعتريه ، ويبث هذا الاهتمام فى إخوانه ، يضطره بدون أن يشعر إلى فعل هذا مع غيره فى مثل تلك الظروف . وبذلك يغرس فيه العواطف السامية والسجايا الحميدة ومراعاة الواجب ، بطريقة غير مباشرة ، ليس فيها الشدة والإرهاب اللذين طالما يدفعان الأطفال للتمرد والعناد .

ولا شك فى أن مشاركة المربى لأطفاله فى شعورهم لها أثر كبير فى زيادة صلتهم به وثقتهم فى حبه فيُلُون اليه بكل ما يفرحهم ، وما يعكر صفوهم ، بل وكل ما تكنه صدورهم . وهنا يستطيع الإفادة من ذلك الموقف الطبيعى الذى لا تكلف فيه . وإنها لفرصة سانحة ، ومجال واسع يجب أن ينتهزه لتقويم أخلاق أطفاله ، وتقدير حسناتهم إذا أحسنوا ، والتفكير فى البواعث التى تدفعهم إلى الخطأ إذا حصل ذلك منهم .

فإذا قدَّرنا غيرنا ، وفكرنا فيه ، وسررنا لسروره ، وتألمنا لألمه ، فإننا ننتظر منه أن يقابلنا بالمثل ، فيقدِّرنا ويفكر فينا ويشاركنا فى سعادتنا وشقائنا .

وإن ذلك كله يستدعى أن يضع الإنسان نفسه موضع غيره أيا كان ، على

شرط أن يكون لديه استعداد لفهم نفسيتهم، والتفكير فى ظروفهم ، والشعور بحالاتهم ، بصرف النظر عن مركزه بالنسبة لهم ، ودون اعتبار للفارق بين الغنى والفقير ، والعظيم والصغير، والقريب والغريب . بمعنى ألا يكون منصب المرء العالى سدا مانعا فى سبيل فهمه لغيره ، وتقديره ظروفه المحيطة به ؛ بل على العكس من ذلك ، يجب أن يكون هذا المنصب العالى داعيا لمشاركته غيره فى عواطفه ، ومساعدته أدبيا وماديا ؛ إذ بذلك يمتلك قلوب الناس ، وتعلو منزلته عندهم .

ولا غرابة فى ذلك ، فالشخصية الطيبة ، والشعور السامى يستدعيان أن نتأثر لغيرنا، ويتأثر غيرنا لنا . وبهذا يصبح المجتمع وحدة متماسكة متحدة فى عواطفها ووجدانها ، يسهر كل فرد منها على مصلحته ومصلحة المجتمع ، ويحب لغيره ما يحب لنفسه ، ويعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به ، فيقل الشر ، ويعم الخير.

فالمشاركة الوجدانية هى التى تجعل حياة الجماعة مفيدة نافعة لجميع أفرادها، وهى أقوى عامل فى توحيد عواطف كل فئة وميولها ، وأساس كثير من العواطف السامية ، كالرحمة والشفقة والإحسان والمواساة .

التقليد

كم منا يستطيع أن يرفع عن عينيه الستار ، فتبدو له حياة طفولته ، ويرى نفسه تارة ممسكا بالقلم يسجّل على الورق خطوطا وأشكالا كأنه يكتب ، وتارة منهمكا فى تصفح الكتب والمجلات مرددا أصواتا كأنه يقرأ ، وأخرى جامعا إخوته الصغار ليشرح لهم الدرس كما يشرحه له مدرسه ، وغير ذلك مما يأتى به الأطفال عادة من حين إلى آخر ، بدافع من تأثير ميلهم الفطرى للتقليد ، ومحاكاة من يعجبون بهم ، أو يشعرون بالضعف بالنسبة لهم . وليس هذا الميل الفطرى مقصورا على الأطفال ، بل هو ميل عام يدفع الصغار والكبار على السواء إلى فعل ما يرون أو يتذكرون من أفعال غيرهم وحركاتهم ، بقصد أو بغير قصد .

وإذا تتبعنا ظهور هذا الميل فى الطفل ، نجد أن يتطور تطورا محسوسا فى مراحل النمو المختلفة ، بحيث يشمل أنواعا متباينة للتقليد تبدو فى الطفل كما يأتى:

النوع الأول من التقليد يظهر واضحا فى الستة أشهر الأولى ، فترى الطفل يبكى عندما يسمع طفلا آخر يبكى ، ويضحك عندما يضحك أحد أمامه ، ويصرخ إذا سمع صراخ أحد . ويظل هذا النوع من التقليد ملازما للمرء طول حياته ، فتراه يتثاءب إذا تثاءب أحد أمامه ، كما ترى أن سرور المربى أو غضبه ينعكس على تلاميذه . وليس ذلك كله عملا إراديا مقصودا ، بل هو فعل فطرى يقوم بالتعبير عن انفعالات نفسية مختلفة . ولذلك سمى هذا النوع من التقليد : بالتقليد المنعكس .

والنوع الثانى من التقليد يختلف عن سابقه فى أن العمل المحاكى ليس صادرا عن غريزة ما . فالطفل يحاكى ما يراه محاكاة لا غرض له منها وجميع أفعال الأطفال التقليدية فى الأربع أو الخمس سنوات الأولى ، كلها من

هذا القبيل . فهو يقلد مشية أهل بيته وطرق معيشتهم وتعبيرهم وكلامهم ؛ وبذلك يحصل على قسط وافر من اللغة والمعلومات ، فيزداد خبرة بالعالم المحيط به . ولهذا النوع أثر كبير فى تكوين خلق الطفل وشخصيته . ولما كان الطفل يقوم بكل ذلك من تلقاء نفسه ، ومن غير قصد سمى هذا النوع التقليد التلقائى .

وكثيرا ما نرى الأطفال يتخيلون العصا حصانا ، والكرسى عربة ، والورق طيارة . وطالما يتخيل الطفل نفسه طائرا من الطيور ، فيرفرف بجناحيه مثلها ، ويقلد أصواتها ؛ أو بائعا من البائعين ، فينادى ويصيح معلنا عما لديه . ويدفعه إلى كل ذلك نوع خاص من التقليد يشبه النوع السابق فى أنه مجرد تحقيق لحركة تصورها الطفل ، ولكن بصورة خاصة حسب تفكيره هو ، وحسبما يمليه عليه خياله النشط الواسع . فهو لا يقلد تقليدا مطلقا كما يفعل فى النوع التلقائى ، بل يستوحى خياله ، فيغيّر ويبدّل ويكوّن صورا وأشكالا جديدة تمثّل الحياة المحيطة به . ولذلك يسمى هذا التقليد بالتقليد التمثيلى .

ويبدأ الميل إلى التمثيل عند الطفل فى الثانية من عمره ، ويبلغ درجة كبيرة بين الرابعة والسابعة . وبذلك يفسح المجال للطفل فى الترقى العقلى ، والاستفادة مما حوله ، وبذلك أيضا تصير كثير من الحوادث والظواهر معروفة لديه . فيتعلم كثيرا من عادات المجتمع المختلفة والحرف والصنائع . كل ذلك بطريقة تقليد العمل أى بممارسة عمل الشىء بنفسه .

وهناك نوع آخر يختلف عن الأنواع السابقة فى أنه يصدر عن قصد وغرض . فالطفل يبدأ فى الثانية من عمره تقريبا فى تقليد غيره ومحاكاته محاكاة مقصودة . وإن هذا النوع أساس تعليم القراءة والكتابة والرسم وكثير من الأعمال اليدوية وغير ذلك مما يقوم به المرء عن قصد وإرادة لكسب مهارة أو معرفة . ولذلك سمى بالتقليد المقصود .

وعندما يبلغ الطفل منزلة عقلية مناسبة ، وتكون معلوماته وتجاربه قد زادت ونمت وتهذبت ، يأخذ فى توجيهها وجهات خاصة ، محدودة بما يحيط به من بيئة حسنة أو سيئة . وهذا يستلزم تقليد الشخص الذى يتخذه لنفسه مثلا أعلى من بين من يخالطونه أو ممن يسمع عنهم . ويكون خاضعا فى كل ذلك إلى آخر نوع من التقليد ظهورا ، وهو تقليد المثل الأعلى . وهذا النوع أرقى أنواع التقليد وأخطرها شأنا فى التربية ويبدو واضح الأثر فى دور المراهقة وفى أوائل مرحلة الشباب . وعندئذ تصبح أعمال الفتى — أو الفتاة — محكومة إلى حد ما بأعمال من يعجب به من أقرب الناس إليه ومدرسيه ، أو ممن يقرأ عنهم فى كتب التاريخ والآداب والروايات . ولذا يجب أن يكون من بين الكتب التى توضع بين أيدى الأطفال فى هذا الدور عدد غير قليل من تراجم حياة الأشخاص الجديرين بأن يقلدوهم . ولا يخفى على أحد ما لقراءة الروايات والكتب والمجلات المختلفة ، من أثر كبير فى توجيه سلوك المرء ولا سيما فى هذا الطور من حياته . غير أن هذا المثل الأعلى ظالما يتغير ويتبدل حسبما يتراءى للطفل فى أوقاته وظروفه المختلفة ، وتبعا لما بينه وبين مثله الأعلى من العلاقات المتينة أو الضعيفة . وعند ما يكبر الطفل نرى كل أعماله وتصرفاته متجهة لتحقيق هذا المثل الذى يسعى لمحاكاته . ولا شك أن لذلك أثراً كبيراً فى تكوينه .

فائدة التقليد للفرد والمجتمع :

التقليد يوفر على الفرد جهدا كبيرا ووقتا طويلا يصرفهما عادة فى محاولات وتجارب يقوم بها حتى يستطيع أداء أعماله على وجه مرضى ناجح . فإذا قلد غيره فى عمل ما ، وأحسن تقليد هذا العمل ، كان لديه أوقات موفورة يمكنه صرفها فى القيام بأعمال أخرى نافعة .

ولما كان التقليد يدعو الى الملاحظة والانتباه ، فهو إذن أساس لتكوين العادات العقلية والحركية والخلقية . فبه يستطيع المرء أن يكتسب كثيراً من المهارة والمعرفة والصفات المرضية . ولذا كان وسيلة فعالة لتعليم الأطفال وإعدادهم للأعمال الكثيرة المتنوعة . وكان أيضا أبسط الأشكال التى بها يجعل الفرد نفسه مطابقا للبيئة التى يعيش فيها والمجتمع الذى ينتسب اليه . وقد يعم المجتمع عادات خاصة تأخذ بها أفراده جيلا بعد جيل ، وبذلك تصبح تقاليد راسخة . والأمة بأجمعها قد تختار لها من بين سائر الأمم شعبا راقيا تحذو حذوه ، ومن هنا نرى الثقافة والحضارة والمدنية والمبتكرات على اختلاف أنواعها تنتشر فى أنحاء الأرض ، فتستفيد بها الأمم ، الواحدة إثر الأخرى . فالتقليد إذن أساس الترقى الفردى والاجتماعى معا . غير أن له أضرارا طالما تصيب الأفراد بل والمجتمعات . وهذه الأضرار تنشأ عن الاسترسال فى الالتجاء إليه وعدم التبصر فى ما يصح تقليده وما لا يصح . وقد يتسبب عنه أيضا أن يصبح الإنسان عاجزا عن التصرف والابتكار .

التقليد والتربية :

أهم مصادر نشاط الطفل الذاتى هى الغرائز والميول المختلفة . ولما كان التقليد من أوضح الميول الفطرية ظهورا فى حياة الطفل منذ ولادته ، كان حتما على المربى استغلال هذا النشاط فى تربيته جسما وعقلا وخلقا . فالطفل يحاكى الكلمات التى تتوارد على سمعه شيئا فشيئا ، ويتأثر بانفعالات المحيطين به وحركاتهم ، فتنطبع فى مجموعه العصبى المرن كثير من العادات الجسمية والعقلية والخلقية . وإن للمربى اليد الطولى فى تكوين هذه العادات ، ومراقبة ما اعوج منها منذ بدء ظهوره لإصلاحها . فعليه أن يلاحظ نطق الطفل ومشيته وأوضاع جسمه فى الجلسة والوقوف ، وطريقة أكله

وشربه ونظام نومه ومعيشته بوجه عام، حتى تكون العادات التي يكونها الطفل في هذه الأمور صحيحة صالحة . كذلك يجب أن يراقب نظام تفكيره وطريقة دراسته ونوع السجايا والصفات التي يقلدها ، وأن يجتهد في تنظيم بيئته وأن يكون له في كل ذلك قدوة صالحة وأسوة حسنة .

وعند ما يذهب الطفل الى المدرسة تتسع بذلك بيئته ، وينفسح أمامه مجال التقليد وميدان المحاكاة ، فيستمر في تقليد من يحيطون به ، فتارة يقلد أحد زملائه ، وأخرى يقلد أحد معلميه . وهنا يجب استغلال هذا الميل الشديد في تدريب الطفل على شتى الألعاب الرياضية وعلى التمثيل والموسيقى والخط وبعض أنواع الأشغال اليدوية والرسم . وكلها يمكن أن تكتسب بالتقليد . غير أن للتقليد حدا إذا تجاوزه أضر ذلك بتكوين الطفل. فلو تصورنا أطفالا يتعلمون مختلف الأعمال بوساطة تقليدها في كل خطواتها ، لما تركنا لهم مجالا للفحص والبحث وإعمال الفكر في رسم الخطة التي توصلهم لتلك الأعمال . ولا يخفى ما لذلك من الأثر السيء في تربية الأطفال . ويكفي أن نقول إن هذه الطريقة تقتل روح الابتكار ، وتضعف قوة التخيل ، وتسد أمام الأطفال مجال البحث والتفكير .

ولذلك اهتمت التربية الحديثة بجعل موقف المربي سلبيا في أكثر الأحايين ، وحصر مهمته في التوجيه والإرشاد لما فيه خير الطفل ، ليكون أمام الأخير مجال واسع يفكر فيه ويجرب ، ويحاول بقدر الامكان تعليم نفسه بنفسه .

فعلى المربي والقائمين بأمر الطفل ألا يلجأوا إلى التقليد إلا في حالات خاصة ، كتعليم الأطفال كيفية استعمال بعض الأدوات كالمساطر والمقصات والمقاطع وغيرها ، ووسائل اتقائه الخطر في أثناء السير في الطرقات ، وفي تمثيل الحكايات وتقليد أصوات الطيور والحيوانات المختلفة ، وفي تعليمهم الخط

والموسيقى والألعاب ونحوها من أوجه النشاط التى يحسن أن نجعل الطفل يتعلمها عن طريق التقليد .

والتقليد على كل حال ميل هام عند الإنسان ، يمكن به أن يرضى كثيرا من الاستعدادات الفطرية كاللعب مثلا . وعلى أساسه يستطيع الطفل أن ينطق ويتكلم ويقوم بمختلف الأفعال التى يساعده القيام بها على النجاح فى هذه الحياة .